مجلة كلية
الدعوة الإسلامية

العدد
السابع عشر
2000

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة - تصدر سنويا

1430 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 2000 افرنجي

من خصائص القصة القرآنية

الدكتور سعيد الفاندي

عندما كانت القصة حكاية مشوبة بالأساطير والخرافات كان القرآن يتنزل بقصص يصور الحياة الشعورية الداخلية للإنسان في توافق مع صور الحياة الخارجية التي تؤثر في ذلك الإنسان وتتأثر به في مشاهد خالدة، لا تخضع لزمن أو بقعة أو فكرة محدودة، بل في معالجة معجزة، للنفس بالهداية، وللعقل بحسن النظر، وللذوق بالمتعة، وللحياة بالنهوض.

ولا يستطيع الباحث أن يقارن بين طبيعة القصة القرآنية من حيث البناء والمقصد والأثر وبين حكايات العرب وملاحم اليونان والرومان، والقصص الرمزية الفارسية والهندية، كما أنه لا تناسب في الأسلوب وروعة توظيف المشاهد القصصية، بين ما في القرآن وما في الإنجيل والتوراة من القصص التي

كانت أقرب ما تكون إلى الأمثال والحوادث المحددة التي تمجد أفراداً أو مواقف أو قضايا، في افتقار إلى العناصر الأدبية في العرض والحوار.

أعرض القرآن عن الأعلام وصغائر الحوادث وجزئيات الوقائع، بل قصد إلى الاعتبار بما يسوق من أخبار تدور في فلك التاريخ، وبما يتأصل من قوانين اجتماعية وقواعد سلوكية للأفراد والأمم، ولا يهتم بأسماء الأعلام إلا إذا كان في ذكرها إبراز لفكرة أو تذكير بعبرة، كأسماء الأنبياء وألقاب الجبارين. يقول محمد الطاهر بن عاشور في هذا المعنى: «القرآن إنما يذكر القصص والأخبار للموعظة والاعتبار لا لأن يتحدث بها الناس في الأسمار»[1].

والقصة القرآنية في الآية القرآنية مستقلة بمعنى جزئي تام ومتحدة مع مثيلاتها من المشاهد الأخرى التي باجتماعها في سورة أو مجموعة من السور تكتمل أبعادها، ويتدخل المشهد كذلك فيصور يؤلِّف بين المشاهد، وهذه من أعظم خصائص القصة القرآنية، حيث يحقق المشهد الواحد غرضاً في الهداية والاعتبار، ثم يحقق مقاصد أخرى مجتمعة في تعانق مع جميع المشاهد، ويكون السامع أو القارىء مستحضراً لعقله بالتأمل والإلمام والاستنتاج، فإذا لاحظنا القصص المبثوثة في سورة البقرة وجدنا أنها تعالج في مجملها قضايا تتعلق بإظهار قدرة الله في الخلق والإماتة والإعادة، ومع ذلك يكون لتلك المشاهد صلة بمشاهد من صور أخرى مكملة لها، فقصة خلق آدم وسجود الملائكة له تتكرر في البقرة وسور أخرى، مثل الأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه، وتتجانس في الوقت نفسه مع جزء من قصة إبراهيم في سورة البقرة، حيث سبقت في التدليل على قدرة الله في الخلق وإحياء الموتى، وتتجانس أيضاً مع إحياء قتيل بني إسرائيل الذي أُمروا أن يضربوه ببعضها، وتلتحم مع قصة عزير الذي مر على قرية خاوية على عروشها فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾[2] وهناك قصص معدودة وردت مرة واحدة ولم تتكرر في مواطن أخرى مثل قصة ذي القرنين، وقصة أصحاب

(1) التحرير والتنوير ـ تونس ـ الدار التونسية للنشر ـ 1984ف 1/ 25.

(2) سورة البقرة، الآية: 259.

الجنة في سورة الكهف، ولكنها تتصل بقصص أخرى في السورة من حيث الدلالة على قدرة الله في نصرة أهل طاعته، وخذلان أهل معصيته، كما أن قصة أصحاب الفيل التي ذكرت مرة واحدة في سورة سميت بها، توافق مجموعة أخرى من القصص تبرز قدرة الله على الانتقام من المفسدين، ومن ذلك ما جاء في سورة الأعراف من قصة المنسلخ من آيات الله، قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[3] ولأن بني إسرائيل يمثلون نموذجاً حياً لما يلاقيه الأنبياء في تحمل الأذى من مدعويهم، فإنهم ذكروا في سور كثيرة وفي مشاهد متفرقة من السورة الواحدة، ولأن في ذكر أحوالهم اعتباراً أو تبصرة للمذكرين، وكان رسولهم موسى عليه السلام أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن، وهو كان ذا عزم صليد في تحمل الأذى من قومه ومن فرعون وقومه.

ومن خصائص القصة القرآنية أنها نموذج في التعبير عن مشكلات الإنسان وقضاياه، فقد قام الدليل على أنها ليست من المخيلات، فحتى أشد القصص غرابة وإعجازاً، يشعر المتلقي أنها تعالج قضية من قضاياه؛ عقدية كانت أو اجتماعية أو معرفية أو خلقية؛ إذ تشتمل على بعض جوانب الحياة الإنسانية، والسلوك البشري، ومعاني القصص القرآني موافقة للحقائق التاريخية كما هو الحال في قصص الأنبياء، وهلاك بعض الأمم، وقصة أصحاب الكهف، فإنه يعرضها في أسلوب يهتم بإبراز المنافع والمضار الناجمة عن جزئيات القصة التي سيقت لمقصد العبرة وليس لمجرد الإخبار.

وقد يتساءل ناقد: لماذا لم تذكر كل قصة كاملة في موضع واحد؟ لا شك أن ترك تكرار القصة في مشاهد يتمم بعضها بعضاً سيضعف من أثر قوة الاعتبار والاحتكام إلى الحق والخير في المواقف الحياتية المتطابقة مع مشاهد تلك القصة الموزَّعة بين السور، بحيث توافق مقصد كل سورة في صورة لا تعارض مقاصد مشاهد القصة الموزعة في مواطن أخرى من سور متعددة، لأن القرآن متحد المعاني يفسر بعضه بعضاً.

يقول محمد الطاهر بن عاشورفي هذا المعنى: «وفوائد القصص تجليها

---

(3) سورة الأعراف، الآية: 175.

المناسبات، فتذكر القصة كالبرهان الغرض المسوق هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكراراً لها»[4] ثم يقول في تعليل ذكر مشهد من قصة في موضع ومشاهد في مواضع أخرى: «تجنب التطويل في الحكاية الواحدة، فيقتصر على موضع العبرة منها في موضع ويذكر آخر في موضع آخر، فيحصل من متفرق مواضعها في القرآن كمال القصة أو كمال المقصود منها، وفي بعضها ما هو شرح لبعض، ومنها أن يكون بعض القصة المذكور في موضع مناسب للحالة المقصودة من سامعها»[5] وقد قال في تآلف البلاغة والقصص القرآني: «ولأن سوقها في مناسباتها يكسبها صفتين: صفة البرهان، وصفة التباين»[6].

فالقصة القرآنية وهي تعرض لمشاهد متفرقة تحقق مراعاة السياق ومقتضى أحوال المخاطبين بالهداية القرآنية، فيكون الجمع بين إعجاز المعنى والصورة البيانية وإعجاز القيمة التاريخية والتذكرية من مضمون القصة، فتتحول القصة إلى صورة من التشبيه الذي لا يقتصر على جملة، بل يستتبع مجموعة من الآيات في محافظة دقيقة على أصل الحقيقة من ذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[7] ويتجلى في القصص القرآني أسلوب الحوار الدقيق الذي يساق من أهل التقرير للحقائق العلمية والعملية، والتأثير بالهداية الربانية، ومن تآلف الأسلوب القرآني وقصصه أنه يصور حوادث القصة وحواراتها في إيقاعات صوتية تلائم المعاني المعبرة، الصورة المؤثرة من ذلك ما جاء في مشهد من قصة يوسف من قوله على لسان امرأة العزيز ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[8] فنغمات الألفاظ جاءت في تركيب يتلاءم مع التهديد والوعيد ولا سيما في كلمتي

(4) م. ن = 1/ 69.

(5) م. ن = 1/ 69.

(6) م. ن = 1/ 64.

(7) سورة الكهف، الآيات: 32 ـ 34.

(8) سورة يوسف، الآية: 32.

«ليسجنن وليكونن» ودلت كلمة «فاستعصم» في حروفها على مدافعة يوسف وتحصينه من الفاحشة، ولا سيما في حرف الميم الذي ختمت به الكلمة، مع دلالتها على صورة إيجابية من الكلمة المختارة من فعل استعصم الذي يدل على أن يوسف اختار جميع أواصر قوة الامتناع.

وكما في إيقاعات الكلمات القرآنية من دلالات على حالة استيقاظ أهل الكهف من سبات استغرق أكثر من ثلاثمائة سنة، بما فيها من المد وطول مساحة الكلمات في التركيب، حيث قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ۖ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾[9] وكما في اقتران التصوير المعنوي بالتصوير الصوتي في قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[10]، لاحظ الكلمات فلنأتينهم ولنخرجنهم وصاغرون.

ومن أبرز خصائص القصص القرآني أنه احتوى على ذكر معالم حضارية تؤكد أنه يقص حوادث كانت ماثلة في حياة الناس، كحديثه عن السدّ العظيم الذي أثبتت آخر التفسيرات التاريخية أنه في منطقة بجمهورية جورجيا[11] في واد سحيق بين جبلين بقمة داريال بجبال القوقاز، وأثبتت الحفريات أن الطوفان حقيقة تاريخية، وليس تمثيلاً ولا تخييلاً. وآثار عاد وثمود، وسيل العرم، وقصة أبرهة الحبشي، فقد ثبتت قصة الطوفان علمياً حيث دلت الكشوف الحديثة أنها موجودة، وقد جاءت القصة في القرآن الكريم مختلفة اختلافاً كثيراً عما هي في التوراة[12]، وكشفت الدراسات الأثرية عن بقايا سد مأرب الذي اجتاحه السيل ووجدوا اسم أبرهة مكتوباً مشفوعاً بلقب الأمير، وتبين بعد مراجعة أخبار

---

(9) سورة الكهف، الآية: 19.

(10) سورة النمل، الآية: 37.

(11) محمد خير رمضان يوسف/ ذي القرنين ـ دمشق ـ دار القلم ـ ط أولى (1406/ 1986).

(12) عبد الجليل شلبي ـ الإسلام والمستشرقون ـ القاهرة ـ دار الشعب ـ ص22 ـ ص351.

المؤرخين القدماء أن عاداً وثمود ذكرتا في تاريخ بطليموس، وأن عاداً هي عادرميت باليونانية Adrmitae، وأن أخبارها محفورة على آثار هيكل «مدين» الذي عثر عليه المؤخر التشكيلي موزيل[13]، وأكدت التحقيقات التاريخية الصحيحة في تاريخ اليمن قديماً وحديثاً أن ذا القرنين هو الملك الحميري شهريهرش[14]، وهو رجل عادل صالح حكم اليمن، وفتح ممالك فارس وخراسان، فوصل إلى مناطق ما وراء نهر جيحون، وبنى هناك مدينة لا تزال تحمل اسمه إلى الآن، وهي مدينة شمرقند، أو كما هي في النطق الدارج سمرقند[15]، وبذلك تسقط كل الأسطورات حول الإسكندر المقدوني.

ولا تجنح القصة القرآنية إلى الرمزية الموهمة لأنها جزء من كتاب مبين لا لبس في أسلوبه ولا خفاء في مقاصده، إلا ما احتاج إلى ضرورات اللغة والعلم من تحصيل الفهم، والوقوف على المعاني الثانوية الإشارية ولا تخلو القصة القرآنية من الرمز الواضح الذي هو أقرب إلى التمثيل منه إلى التوجيه والتورية كما في قوله تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾[16] فلو سرنا وراء الرمزية لأخذنا بالشُّبه الواردة في التوراة بأن النعجة رمز للمرأة، وهي زوج أوريا قائد داوود عليه السلام[17]، ولكنه مثل حي ساقه الله إلى سليمان في ضرورة معاملة الخصمين عند القضاء معاملة عادلة في الاحتكام بقول كليهما، وقد تكون القصة إشارة إلى أمر آخر أراد الله أن يدل عليه عبده داوود بطريق التمثيل، يقول محمد الطاهر بن عاشور «وفي هذا دليل شرعي على جواز وضع القصص التمثيلية التي يقصد منها التربية والموعظة، ولا

---

(13) عباس العقاد ـ الإسلام دعوة عالمية ـ بيروت ـ دار الكتاب اللبناني ـ المجموعة الكاملة المجلد السادس ص190.

(14) (15) مع القرآن الكريم ـ منشورات المركز الثقافي للمقاولين العرب ـ العدد الخامس ـ ط ثانية ص29.

(16) سورة ص، الآيات: 21 ـ 23.

(17) التحرير والتنوير: 23/ 337.

يتحمل واضعها جرحة الكذب، خلافاً للذين نبزوا الحريري بالكذب في وضع المقامات، كما أشار هو إليه في ديباجتها، وفيها دليل شرعي بجواز تمثيل تلك القصص بالأجسام والذوات إذا لم تخالف الشريعة، ومنه تمثيل الروايات والقصص في ديار التمثيل، فإن ما يجري في شرع من قبلنا يصلح دليلاً لنا في شرعنا إذا ما حكاه القرآن أو سنة النبي ﷺ ولم يرد في شرعنا ما ينسخه»[18].

ولقد حاول بعض الكاتبين المحدثين أن يصنف في القصص الرمزي في القرآن فلم يفلح، لأنه عمد إلى آيات جاءت في ضرب أمثال لتوضيح المعاني القرآنية، وأراد لها أن تكون من الرموز القصصية، فحمَّلها ما لا تحتمل من التأويلات، ومن هؤلاء الكاتب أحمد محمد الجمال[19].

وأغرق بعض الباحثين في إخضاع قصص القرآن للمواصفات الفنية في القصة الحديثة، حتى ادعى محمد أحمد خلف الله أن قصص القرآن تخالف حوادث التاريخ، وتعتمد على الخيال والتصوير[20]، وهذا القول أثر من آثار الفكر الاستشراقي، ومما يدل على ذلك أن هذا الباحث عندما صار عميداً لكلية الآداب بالإسكندرية سافر في وفد غير رسمي من أجل المشاركة في المؤتمر الاستشراقي الثالث والعشرين بتاريخ 31/ 8/ 1954م[21].

وتضلع لفيف من المستشرقين بالطعن فوصف القصة القرآنية بمخالفة التاريخ والواقع، وأنكر بعضهم كل قصة قرآنية لم ترد أصولها في التوراة والإنجيل، ومن أمثال هؤلاء، شيرنجر، وجرم ونلدكه، وهايز صاحب كتاب «القصص التوراتي في القرآن»، وأبرهام جبجر صاحب كتاب «ماذا اقتبس محمد من اليهودية»[22].

ويخضع شرنجر القصة القرآنية للأحوال البيئية للنبي ﷺ، ويضرب لذلك

---

(18) م.ن = 23/ 238.

(19) صنف كتاب + القصص الرمزي في القرآن وهو مطبوع ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي.

(20) زكي ذللو في رسالة دكتوراه حول الفكر القصصي في القرآن.

مباحث في علوم القرآن = لمناع القطان ـ مطبعة مؤسسة الرسالة ـ ط19، 1983ف ص308.

(21) مجلة كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية ـ المجلد الثاني ـ 1954ف ص157.

(22) عمر العالم = المستشرقون والقرآن ـ مركز دراسات العالم الإسلامي.

مثلاً بإبراهيم عليه السلام فيقول: إن إبراهيم في أقدم ما نزل من الوحي رسول من الله أنذر قومه، ولم يذكر قط أن إبراهيم هو واضع قواعد البيت، ولا أنه أول المسلمين، أما السور المدنية فالأمر فيها غير ذلك فإبراهيم يدعى حنيفاً مسلماً، وهو واضع ملة إبراهيم، ورفع مع إسماعيل قواعد بيتها المحرم[23].

وبالغ بعض المستشرقين فعد قصص الأنبياء من الأساطير، مع أنها ذكرت في العهد القديم والجديد، يقول هنري مشيه: «أن تلك الأساطير المتعلقة بالأنبياء قد تأثرت في القسم الثالث من السور المكية» ثم يصفها بأنها «انعكاس مشوش لأساطير الهاغار اليهودية»[24].

وإن أكثرهم ليكذب بما لم يرد في التوراة والإنجيل، لاعتقادهم بأنها مصدر الوحي القرآني، منهم كايتون الذي نشر رسالة يكذب فيها حديث ذي القرنين في نقد لاذع لا أصل له من التاريخ والدين[25].

ونجمل القول بأن القرآن له خصائصه القصصية في جميع المشاهد التي عرضها، وفي جميع الأغراض التي دل عليها مستنبطة من مرامي قصصه الذي سيق لنشر العبرة، وإبراز الفكرة في أسلوب يجمع بين الحق والتأثير وتصوير واقع الحياة، ومثالية القيم، بما لا يذهب بصحة الحكم في الحدث، ولا يضعف روعة التأثير بالصورة، وعانق بين الأسلوب والقصة حتى صارت بعض الصور البيانية كالقصة في تصوير تجاوب الإنسان مع الحياة، وصارت القصة صوراً بيانية في روعة التأثير، وفي إعجاز تصوير المشاعر الإنسانية بدقة وعمق، بما لا يستطيع صاحب تلك المشاعر أن يصوره، لأنه تصوير الخالق العليم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[26].

---

(23) مجلة رسالة الإسلام ـ عبد الوهاب حمودة ـ من زلات المستشرقين ـ المجلد 39 ـ السنة العاشرة ـ العدد 2 = 1958ف ـ ص190.

(24) الإسلام ـ ترجمة بهيج شعبان ـ بيروت ـ دار عويدات ـ ط3 ـ ص113.

(25) انظر الإسلام والحضارة الغربية لمحمد كرد علي ـ القاهرة ـ لجنة التأليف والنشر ـ 1950ف ـ 1/ 23.

(26) سورة الملك، الآية: 14.